تجليات الغربة في شعر محمد مصطفى الغماري

زيتوني سهام طالبة دكتوراه
جامعة محمد بوضياف. المسيلة

الملخص :

الإنسان المبدع ذو تكوين نفسي متميز، وهو أكثر الناس تأثرا بمختلف المشاعر ، فالإبداع روح المشاعر لهذا فالغربة من أهم ميزات المبدعين ، وإذا ذكرنا الإبداع والمشاعر تذكرنا مباشرة صورة الشاعر.

ولأن الشعر تجسيد لاستجابة إنسانية لرؤية العالم فقد كان أكثر صلة بظاهرة الغربة وأفصح في التعبير عنها وأدّق في تصويرها، والدارس للشعر العربي عامة، والشعر الجزائري خاصة يصادف فيضا من مشاعر "الغربة" بمختلف صورها وهو ما وضحه لنا الاطلاع على الإنتاج الشعري لمحمد مصطفى الغماري.

الكلمات المفتاحية: الغربة، الشعر الجزائري، مصطفى الغماري، الانفعالات

Résumé :

La personne créative est douée d'une âme exceptionnelle, elle est sensible aux différentes émotions. Puisque la créativité est l'essence des émotions, l'émigration a depuis toujours inspiré les créateurs. Et quand on parle de créativité et d'émotions; cela nous renvoie automatiquement aux poètes.
La poésie est la concrétisation des réactions humaines vis à vis d'une vision du monde, et qui a tant été liée à l'émigration, car rien n'a autant pu exprimer ni dépeindre les pensées touchantes et élevées qu'elle engendre.

On étudiant le poème arabe en général, et le poème algérien en particulier, on rencontre un flux d'émotions d'émigration sous toutes ses formes. C'est ce que l'on a pu voir en découvrant les œuvres poétiques de mohamed Mostafa El Ghemari

تقديـــم:

لم تلازم ظاهرة إنسانية البشر مثلما فعلت الغربة، وكأنها فطرة جُبِل عليها، كيف لا وهي متأصلة في أول الخلق أبو البشرية "آدم عليه السلام"؟، إذ بدأت غربته حتى وهو في الجنة،

لتستمر وتتضاعف غربته من اليوم الذي عصى فيه أوامر ربه بأكله من الشجرة المباركة التي حرمها الله عليه، وهنا سجلت أول صور الغربة والاغتراب بعد فراقه الجنة إلى أرض الغربة والفناء

أولا: الغربـــة:

لغة:

وردت الغربة في أبرز المعاجم العربية بنفس المعاني التي كلها تحمل معنى: البعد، والنوى، والنزوح عن الوطن سواء مخيرًا أو مجبرًا .

فترد في معجم "العين" كلمة الغربة بمعنى: الاغتراب عن الوطن، والغربة: الاغتراب عن الوطن، وغربَ فلانٌ عَنَا يَغْرُبُ غَرْباً أي تنحى، وأغربته وغَرَّبْتُه أي نحيته. والغُرْبَةُ: النَّوَى البعيد، يقال: شقت بهم غربة النوى. وأَغْرَبَ القوم: أنتووا. وغايةٌ مُغرِبةٌ أي بعيدة الشأو. وغَرَّبَتِ الكلاب أي أمعنت في طلب الصيد. ويقال: نحن غُربانِ: أي غريبان...

وقال ابن أحمر:

لَاحَتْ هَجائنُ بَأسِي لَوحةً غُرُب[1]

وعرَّفها "الزمخشري" في كتابه "أساس البلاغة": الغربة تعني البعد والتواري، والابتعاد عن الناظرين، يقول: غربت الوحش في مغاربها أي : غابت في مكانسها، وقذفته نوًى غربةٌ أي بعيدة. وكانت لزرقاء عين غربة أي: بعيدة المطرح. وهذا شاوٌ مغرب بالكسر والفتح، يقال: غرّبه: أبعده، وغرّب: بعد...، ويقال وهل من مغرّبة خبرٍ"؟ وهو الذي جاء من بعدٍ...ورمى فأغرب أي أبعد المرمى..."[2].

ويورد "البستاني" في قاموسه "محيط المحيط " الغربة أيضا بمعنى: المرة والبعد، والتواري والنُزوح عن الوطن، "غَربت النجوم: تغرُب غروبًا بعدت وتوارت في مغيبها، والرجل بَعُد، والقوم غربًا: ذهبوا، وفلان عنَّا: تنحى، وفي سفره تمادى، وفلان غربا وغربة: نزح عن وطنه...وتغرَّب

زيدُ: تزوَّج في غير الأقارب...ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه: الغُربة، والاغتراب، والتَغريب، والغريب، حتى قال بعضهم:

وَصَاحَ غُرابٌ فوقَ أعوادِ بَانةٍ بأخبارِ أحبابِي فقسمنِي الفكرُ
فقلتُ:غرابٌ باغترابٍ وبَـــانةٍ بينَ النَّوَى تلك العيافةُ والزجرُ

... والغربة: النوى والبعد،...وسهمٌ غُرُب: أي لا يُدري راميه، والغُرْبُ: الغَريب، قال الشاعر:

ومَا كَانَ غَضَّ الطَّرفِ مِنّا سَجيّتهُ ولَكنّنَـــا فِي مُدجج غُـــرْبا

أي: غريبان...، الغربة: المُرة والبعد، ويقال نرى غربة: أي بعيدة، والغربة: النزوح عن الوطن...[3].

وفي "لسان العرب" لابن منظور:"... والغُرب: الذَّهاب والتنحي عن الناس،... والغَرْبة والغَرْبُ: النَّوَى والبُعْد، وَيُقَالُ :غَرَّبَ فِي الأَرض وأَغْرَبَ إِذا أَمْعَنَ فِيهَا؛ قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

أَدْنَى تَقاذُفِه التَّغْرِيبُ والخَبَبُ

ونَوى غَرْبةٌ: بَعِيدَةٌ. وغَرْبةُ النَّوى: بُعْدُها؛ قال الشاعر:

وشَطَّ وليُ النَّوَى، إنَّ النَّـوَى قُذُفٌ تيَّاحةٌ غَرْبةٌ بالـدَّارِ أَحْيَـــــــانَا

النَّوَى: المكانُ الذي تَنْوي أن تأتيه في سفرك، ودارهم غَرْبةٌ: نائية، وأَغْرَبَ القومُ: انتوَوْا، وشأو مُغَرِّبٌ ومُغَرَّبٌ، بفتح الراء: بعيد؛ قال الْكُمَيْتُ:

عَهْدَك مِنْ أُولَى الشَّبِيبةِ تَطْـلُبُ عَلَى دُبُرٍ، هيهاتَ شَأْوٌ مُغَـــرِّبُ

...وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ": أَنه قَالَ لِرَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ الأَطْرافِ: هَلْ مِنْ مُغَرِّبَةِ خَبَر؟ أَي هَلْ مِنْ خبَرٍ جديدٍ جاءَ مِنْ بلدٍ بعيدٍ؟ ...والغَرْبِ،: وَهُوَ البُعْد؛ وَمِنْهُ قِيلَ: دارُ فلانٍ غَرْبةٌ، ...والتغريبُ: النفيُ عَنِ الْبَلَدِ، وغَرَبَ أَي: بَعُدَ، وَيُقَالُ: اغْرُبْ عَنِّي أَي تباعَدْ[4].

والملاحظ أن كل معاني الغربة في المعاجم اللغوية العربية تحمل معنى ماديّا أي: البعد المكاني فقط.

2- اصطلاحا: يمكن تلخيص معناها ودلالتها أن الغربة تتمثل في الشعور الذي يمكن أن يشعر به الإنسان عندما يغادر مسقط رأسه أو موطنه إلى مكان آخر، أو الشعور الذي يراود الفرد حين يُضطر للانفصال أو النزوح عن مجتمعه[5].

لكن نلفت النظر أن في بحثنا هذا استعملنا مصطلح التغريب والغربة كمصطلح واحد حسب التعريف اللغوي الذي لا يفرق بينهما، بغض النظر عن استعمالاتها في المجالات الأخرى، وهذا تفاديا للاشتباكات اللفظية.

3- أنـــــــواعـها: الغربة عند الأدباء ذات معنيين:

غربة مادية وهو التعريف الشائع لها، "وهي غربة المرء عن وطنه وعشيرته ومنتديات صباه ومرابع هواه، وهو شعور طبيعي يشترك فيه كل الناس مع اختلاف مستوياتهم وعصورهم، وأمصارهم، وربّما شاركه فيها حتى الحيوان بما اختزنته نفسه من غرائز الألفة والتشبث بالمكان[6].

وهناك **الغربة الروحية**، وهذه الغربة إحساس غامض مبهم بالانعزال والانغلاق يعتري المرء وهو بين أهليه وذويه، يصنعها الحرمان من ممارسة حريته وفكره وعواطفه بصورة طبيعية، أو هي تنتج عن طلاق فكري بين المرء وقومه أو تباين في الأخلاق والنظرة المصيرية...أو انعدام الحوار بينه وبينهم مما يؤدي إلى الإحساس بهذه الغربة[7].وهذه الغربة هي مقصدنا في بحثنا هذا، وسنتعرف على أسبابها وتجليات صورها عند الشاعر الجزائري: "محمد مصطفى الغماري".

فلا ينكر أحد معاناته من الغربة فحتى الرسول "صلى الله عليه وسلم" ذاق مرارتها يوم أبعد عن بلده مكرها من بطش قريش إلى المدينة المنورة، وقبله كان حاله حال الأنبياء والرسل حين تجاهل الناس رسالاتهم.

أما في مجال الشعر فقد لازمته ظاهرة الغربة منذ الشعر الجاهلي حتى أن شعراء لقبوا به، وإلى غاية يومنا هذا لا تزال قرائح الشعراء تفيض غربة وتغرّبا رغم التقدم العلمي، إلا أنه لم يضف

إلا فراغا أكبر، بل وعمق الهوّة بين بَني البشر. ويضيق بنا هنا المجال لنجمع شتات هذا الإحساس في الأدب والشعر، عسى أن يكون موضوعا لأبحاث أخرى مستقبلا،

ثانيا: تجليات الغربة عند الشاعر محمد مصطفى الغماري*:

1- أسباب الغربة :

بالرغم من أن الشاعر "محمد مصطفى الغماري" في وطنه وبين عائلته وأحبابه، إلا أنه إنسان دائم الشعور بالغربة في مجتمع لا يقدّر طموحه، ولا يجد فيه ضالته التي ينشدها وأماله التي يترقبها، يقول الغماري في قصيدة "جهاد وغربة":

تَغَرّبتُ...شَبابتِي فِي جراحِي تَغُوصُ ومِنْ غُرْبَتي تبدعُ

وأوتَارها منْ لَهاة الصبَّـــاحْ تُغَنِّي الدُّرُوب ومَنْ يسمعُ

تَغَرَّبتُ يَا مَوطنِي في الـهَوَى كَسَيفِ النَّبِي جهادً وغربةْ

حَملتُ المسافةَ ملءَ دَمِـــي وأَعلمُ أنَّ المُعَاناةَ صَعبَةْ[8]

بل إنه الغربة نفسها، يقول "الغماري" واصفا غربته اللّامتناهية:

أَنَا غربةٌ تطوِي المَكَـــانْ وَينتهِي فيهَا مَـــــدَاهَا

وَيظلُّ يوغلِ فِي الزَّمـــانْ مَولولًا واخَفقَــاهُ واخَفقَـاهْ[9]

وليس هذا حاله فقط بل أغلب الشعراء في العصر الحديث، حتى أن من الشعراء الجزائريين ممن لازمهتم الغربة في شعرهم حتى لقبوا به، فهذه "الغربة التي أصبح الشاعر يحسّها في عالم مليء بالألم والصخب هي غربة مرتبطة بفلسفة خاصة في الحياة لها دواعيها الخاصة بها، ولها بيئتها الطبيعية التي ولدت فيها فاحتضنها الشعر، وأصبحت ملازمة له، لكن هذه الغربة والشعور بالألم لا تعبر عن حنين واشتياق للوطن بل أسبابها مبهمة"[10].

ونتفق مع الكاتب في وصف الحالة، لكن بقليل من التمعّن والترصد عرفنا **أسباب الغربة** عند شاعرنا "الغماري" وسنتطرق لها بشيء من التفصيل في أوانه.

استعمل الشاعر العبارات الدالة على الغربة، "فرحلة الغربة توحي بها بعض الاستعمالات وجميعها توحي بالرحلة والترحال"[11]، ومنها: السفر، الزاد، الزمان المكان،المسافة، الراحلة، الدروب، الليل،...وهذه الألفاظ أيضا من خصائص لغته الصوفية التي طبع عليها في مشواره الشعري.

والمتمعن في شعر "الغماري" خاصة في ديوانه "أسرار الغربة" يدرك أن لِغربة الغماري ثلاثة أنواع وهي في نفس الوقت أسبابها:

أ- **الغربة الدينية:** والسبب بُعد المجتمع عن الدين والعقيدة الإسلامية: فالغماري "يشعر شعور الاعتقاد أنه ابن الإسلام وهذا ما زاد في محنته وغربته معا، إنه ينظر إلى أُمة الإسلام على رحابة أطرافها فلا يرى إلا ردّة كبرى عن الإسلام، يرى جاهلية طاغية، وتبعية ذليلة وهزائم تتلوها هزائمهم[12].

فهو و"عقيدته السمراء" في دائرة التغرّب، والحقيقة أن هذه الغربة التي يعيشها الغماري "ليست مرضا يتصدع بتصدع الذات"، بل هي غربة الهمّة، ، وهذه الغربة طبيعية جدا في حياة مسلم وملتزم بقضايا دينه وأمته[13]، بل هي الغربة "المحمودة" وهي الغربة التي مدح "رسول الله" أهلها، وعن الدين الذي جاء به قال: {أَنَّهُ بَدَأَ غَريبًا وَأَنَّهُ سيعودُ غَريبًا كَمَا بَدَأَ}، و{أنَّ أهلهُ يصيرونَ غُربَاءَ}... وهي "غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق وهذه الغربة لا وحشة على صاحبها بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا فوليه الله ورسوله والذين آمنوا وإن عاداه أكثر الناس وجفوه"[14]، يقول الشاعر "الغماري":

نَاجَى المُحبُّونَ لَيلَاهُم وأَحْزَنَنِي
أَلَّا أَرَاكِ سِـوى رَسْـــم بأَبْعَـادِي[15]

وهذا الأبيات وغيرها كثير تؤكد أن "غربة الشاعر إنما هي غربة عقائدية محضة وليست جسدية، لأن الشاعر الهادف لا يعرف لهذه الغربة معنى أو يحسّ بها...[16]، فرغم أننا في مجتمع إسلامي وأن الإسلام موجود بين أهله، لكنه "غريب بينهم في آن واحد...موجود في مظاهره غريب في روحه وكيانه، كعقيدة تتبناها الأمة فلسفة حياة، وتصارع بها الأفكار والعقائد التي تتبناها الأمم الأخرى، وتحاول أن تغزو بها المسلمين، بل فعلت ونجحت في كثير من الأحيان"[17]:

آهٍ .. يَا أحبابَنَــا خَبَتْ مســافاتُ البِعَــادْ

فاغتــرَبْنَــــــــا ..

ولَدَينَا مِنْ ضِيَاءِ اللهِ زَاد

حينَ غالتْ فطرةَ الصحراءِ "عشتارٌ و"عَاد"[18]

ب- الغربة الأدبية: والسبب بعده عن التيارات الأدبية في الجزائر، وخاصة الشعراء منهم في بداية حياته الشعرية، فقد كان الشاعر يمثل تيارا شعريا في حد ذاته ينشد فيه الأصالة سواء في الموضوعات، أو الشكل، في حين تلهف باقي الشعراء إلى تلقف ما ينتجه الشعراء المشارقة تحت شعار التجديد والحداثة.

"ولعلنا لا نجافي الصواب إذا قلنا إن "الغماري" يمثل أنموذج الشاعر المغترب الذي سقي مرارة الاغتراب والوحدة، فلم يتعرض شاعر أو أديب أو كاتب ولاسيما في الجزائر للمراقبة مثل ما تعرض له "الغماري"، فقد كانت عليه مراقبة مجهرية، وعلى إبداعه إلى درجة المطالبة بمصادرة أول ديوان له*، ولا تزال المراقبة متواصلة إلى يومنا هذا"[19].

ج- غربة اجتماعية: وخاصة بعد خيبة أمله عقب الاستقلال، فقد كان يرسم غدا أفضل لم يكن ينغصه سوى المستعمر، لكن المستعمر رحل وخلّف وراءه رواسب لم ولن يَمحيها أشباه الرجال، و"أن الاستقلال الحقيقي هو تصفية الاستعمار من العقول على حد تعبير مالك بن نبي"[20].

إنه يائس يشعر بالغربة حتى وهو في وطنه وبين قومه وأهله والسبب: "مجتمع لا يقدر طموحه، ولا يجد فيه ضالته التي ينشدها وأماله التي يترقبها"[21].

أَخضرَاءَ مَا غِبتُ ولَكنَّنَا بِأَوْطَانِنَا غُيَّبُ[22]

ولا عجب أن يتفاقم هذا الإحساس عند الشعراء المعاصرين، في عالم تحكمه الماديات ، لأن "الغربة التي أصبح يحسها الشاعر الحديث هي غربة في الوطن، غربة وسط الأهل والأحباب محيطون به يسكنه هاجس القلق من خلالها، والخوف من كل شيء، وأي شيء، يحسُّ بأنَّ الأيّام لا تخفي له إلا ويلا ولا تعدّ له إلا سمًّا، كل نفس حتى نفسه يترصده ويريد النيل منه، وهذه الغربة ولدت بطبيعتها غموضا"[23].

يلقب الغماري بشاعر "العقيدة الإسلامية" لكن نستطيع أن نلقبه بشاعر الغربة، فلا تكاد تكون قصيدة إلا وكان فيها غريبا، كيف لا ونعرف الغربة من صفات المسلم كما ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم**، ونذكر أيضا أن أول ديوان له كان بعنوان "أسرار الغربة"، فلنتعرف أكثر على أسرارها بالغوص في تجلياتها:

2- صـــور الغـــــــربة:

وقد تجلت الغربة في الشعر الغماري في عدة صور لكن حاولنا تلخيصها في أهم ثلاث نقاط وهي:

أ- الحـــزن والألـــــم:

تتجلى الغربة عبر عدد لا يحصى من الصور الأليمة والحزينة في شعره، "فإحساس الشاعر بالغربة في أرض لا تعرفه، وقوانين تلجمه وتحطّم عناصر شخصيته الروحية كل ذلك إنما يجعل الشاعر مستحيلا، باكيا، كاشفا عن همومه وآلامه، معبرًا عما تحمله النفس من عنت وبؤس"[24]، يقول متثاقلا مستسلما:

ليسَ لِي إلا الكلامُ والحزنُ والجرحُ الحزينْ واللَّحنُ الجريحْ

ومآقٍ تتلظَى بــرُؤَى قـلبٍ ذَبِيـــــــــحْ

فأنا لا أملكُ السَّيفَ ولَا التَّـاج المَـــــهيبْ

إِنَّما فِي القَلبِ جمرٌ يَسفحُ اللَّحنَ الخَصيبْ[25]

وقد استنفذت كثرة الآلام قواه، وخارت حتى بلغت أدنى مستويات الظمأ، والسبب :

ظمآنُ إلَّا منَ الآلام تَعْصرُنِي لَحنًا وتسكرُ منْ عمرِ الأَناشيدِ[26]

ويقول أيضا:

وَتيبسُ في دَمِي رُؤياي تُصلبُ في أَحْلَامِي

وتنبت غربةٌ وحشيةٌ تَغتــالُ أَنْسَـــــــامِي

وكمْ غَنَّت عَلَى ظَمإٍ بِنَارِ الحرفِ أيامِـــــي[27]

ويعلن شكواه بصفة صارخة وأكثر تقريرية في ديوانه "ألم وثورة"، ولعل العنوان يحمل أكثر من دلالة " فالغماري ثار لأنه تألم "[28]:

معًا صُلبنَا عَلَى أَشْلاءِ دُنيانَا وكم شربنا الأسى في الليل ألوانا

وكمْ قرأنَا معًا أسرارَ غُربتِـنَا هَلْ الغريبان يا سَمراءُ إلَّانَـــــا؟

وتزداد غربته، ويستولي على الشاعر شعور قاتل بالحزن والضياع حتى أصبح ملازما له:

كَمْ عشتُ في الحُزن يَهوانِي وأَعشَقُهُ حَتَّى تَنفسَّ مثلَ الفجرِ إيمَـانَا

فما هو الحل إذن ؟ لا يوجد سوى سبيل سوى التغرّب والسفر، يقول:

سَافرتُ فيهِ وكَان الزَّاد في سفــري مَا كَبرنَا ومَا شَــاخَتْ حَنَايَـــانَا

فالحزن والهموم تسكن ليالي الشاعر وتظهر فيه بشدة، فليس هناك وقت تنتظره الهموم والأحزان سوى الليالي الطويلة، لأنّه ما من ليل إلا لازمه ألم وسهر، فلا ينام إلا كل مرتاح، لذا فالشاعر:

يُنَاجِي اللَّيــلَ والأَشْـــوَاقَ والآلاَمَ والـــــــــقَدَرَا[29]

إنّه ليلٌ طويلٌ بمرارته، إنه موسم تفتح براعم الحزن التي تُنبِتُها شجرة الأسى، يصرخ قائلا:

أَحِبَائِي..طَالَتْ بِي شَكَاتِي وَغُرْبَتِي

بدَرب يَدُوسُ خِصــلَاته الغنَـــــا

كَأنَّ الظَّلامَ المرَّ.. وأوراقَ الأسَى تثمرُ الحُزْنَا

إلَى الجِرَّاحِ السُّودِ..تَعصـــرُ مُقـلتِي

ويَسكرُ مِنِّي اللَّيلُ..يَفْنَي . ومَا يَفْنَى[30]

استمر ألمه وطال باستمرار أسبابه إلى درجة الموت من الجرح الذي يرفض أن يُشفى، فيخاطب بلهجة متحدية ينتظر مصيره بثقة وصبر:

فقفْ يا حاملَ الأقداحِ

واشهدْ موتَنَا حِـــينَا

على أطــلَال وَاديــنَا

عَلَى نَجْوَى شَربتْ بهَا شَرابِا تَبصهُ العسلُ

وَمِنْ شَكوَى شَرقَتْ بِهَا

فجُـرحِي لَيسَ يَندَمِــلُ[31]

ويطولُ أَلَمُه وحسرة والحزن ويؤثر ذلك على شعره الذي هو "قيتاره"، فيصبح صفة لازمة له، بل على كل حياته، يصرخ قائلا:

يَـــــا مَـــــــوَّالُ

أوراقُ الهَـوَى حَســرَةْ

ومَاتَ اللَّحنُ فِي القيتَارْ

جَفَّ العطرُ فِي الأَزْهَارْ

لا أُنــسُ، ولا فـــرحْ

وهَا ظمئتْ وريقاتُ الرِّمالِ السُمرْ

يَـــــا- سَـــــاقِي

بِأَعْمَـــــــــــاقِي[32]

وانعكست صور نفسيته الداخلية السلبية على كل ما هو خارجي، فكل ما هو جميل خفَّ رونقه وزال بريقه.

ب- الشعور بالوحدة والضجـر: فالشاعر وحيد حزين وغريب:

وَحيدٌ يَمضغُ النَّجـــــــوَى وَيَقْتَــاتُ الــــــدَّواوينَا[33]

فأفكاره جعلته كما لو أنه في كائن متفرد نزل من عالم آخر غير الأرض، يقول في قصيدته "حرام" وهي قصيدة تصلح أن تكون أنموذج للاغتراب عند الشاعر:

وَعَيني..مِلْؤُهَا الأَشباحُ والأوهامُ

والضجـــــــــــرُ

.....

نُسَافر فِي حَنَـايَاهَا

نُفَتِشُ عنْ مَعَانِي الشَّوقِ والإيمانِ والتوحيدِ والوحدَةْ

وتنبتُ غُربةٌ حينًا مَدَى..

يتسكـــــــعُ العَـــــــدَمُ

تُضاجِعُها عَلَى الأبعادِ رُؤيَا مُرَّةٌ...سَأَمُ[34]

ت-القلـــــــق: هو ردّ فعل عكسي للغربة التي يعيشها الشاعر يقول:

وتَاهَتْ غُربَةٌ سوداءُ بين الموجِ والقــلقِ

فهلْ تَدرينَ يا أبعادُ فِي الحَرْفِ منْ عبقِ؟[35]

والسواد هنا يضيف للغربة صفة الكثرة والاستمرارية، والتشاؤم أيضا، لكنه لا يستسلم لغربته ففي كل قصيدة وبعد كل غربة يواجهها، ولا يقف مكتوف الأيدي:

لــمْ نزل في غـربة العصـرِ نُقـــــاتلْ

منْ يَدينَا يُورقُ الفجرُ وتختالُ السنابلْ[36]

ولأن **الغماري** شاعر "العقيدة الإسلامية"، فهو ممّن "قوي إيمانهم" إلى درجة أنه:

أَقْوَى مِنَ الأيَّامِ...يَا إِيمَــانِي

وَمنَ الدُّجَى والغَدِ والأَضْغَــانِ[37]

فإنه مؤمن يقينا أنه:

سَيُورِقُ بالضُّحَى دَرْبِي وَتَفْنَى الغربةُ النُكــرُ

وأزرعُ ألفَ أغنيةً علَى اللُّقيَا...فتخضـــــــرُ

وفي عَينيكِ يا سَمحاءُ..يبحرُ بالهوى العُمــرُ[38]

فهو دائما يتفاءل بانفراج الأزمة وزوال الغمة والغربة، فبعد الكرب والشدَّة يأتي الفرج وبعد كل ألم لذة:

سَأَجني اللَّذةَ الخَضرَاءَ من ألمِي غَدِي

ومنْ شفتِي نــداءاتٌ إلـهيـةْ

ومنْ قممِي مَشاويرٌ نضاليةْ

لأعبـــــقُ فــي غَـــــدِي

وَبيـــــنَ ظِـــــلالِه سُـــورَة

وَأَهـــــزِمُ كُــلَّ أُسطُـــــورَةْ[39]

ومصدر إلهامه سيكون إيمانه وعقيدته "الخضراء" السمحاء، والتي يظلّها القرآن الكريم. فالغماري غريب مسافر ولا بدّ للمسافر من زاد يلازمه، فما هي طبيعة زاده؟ يقول في قصيدة "مسافر في الشوق":

زَادِي شَرِيعتِي الخَضْرَاءُ..تُطعِمُنِي

وَمِنْ كَرُومك ..يَا رَبَّاه تَسْــقينِي [40]

فلا دواء لعلّة الغربة سوى الحب، والإيمان، وعالم الطفولة، ولا مناص من الرجوع أخيرا إلى الوطن الأم:

وفِي غَدِي نَلتَقِي شَوْقًا بِمَــزرَعتِي

فكرًا تفتَّحَ آيـاتٍ..وقُــــــــــرْآنَا

ونسبقُ الحلــم..نبنيــه ونصنــعهُ

وتشربُ القريةَ الخضراءُ سقيَــــانَا

أَرَى صَلَاتِي علَى الأَطفالِ..وَادعــةً

عَلَى الرُّبَا..فِي رَبيعِ العُمرِ نيســانَا

وأنتَ يَا وَطني _ واللهِ_ ملءَ دَمِــي

فغنِّ يا لحنُ يخضوضـرْ جَناحَــانَا[41]

فلا توجد أبيات تختزل شخصية الشاعر "الغماري" كما فعلت هذه الأبيات، فهي تصوره أحسن تصوير.

وممّا سبق نقول أن نفسية الغماري – من خلال شعره – تدور حول حلقة قد تكون نقطة الانطلاق فيها "غربة" تمر بالحزن والألم والشعور بالضياع والملل والوحدة، لترجع إلى نقطة البداية: غربة واغتراب دائمين، وبعبارة أخرى قد تكون غربته سببا أحيانا، وقد تكون نتيجة في آن واحد، فشعر "الغماري" صورة لانفعالاته النفسية.

فإذا كانت الغربة في جوهرها غربة المكان، فما عسانا نقول: إذا كانت الغربة في المكان، غربة في منفى اسمه: الوطن، والوطن اسمه الجزائر.

هوامش:

[1] الخليل بن أحمد الفراهيدي : معجم العين، تحقيق عبدالحميد هنداوي: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ج 3، مادة غرب، ص: 271- 272.

[2] أبي القاسم بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1998، ص 297.

[3] بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان ، ص: 654.

[4] أبي الفضل بن منظور، لسان العرب المجلد 1 دار صادر، بيروت،: ص: 638-639.

[5] عبد الرحمن بن زيدان، التمرد والغربة ي الشعر الجاهلي: ص:

[6] أحمد القديدي، أدب الغربة عند القيروانيين مجلة الفكر العدد 108 ، 1 ماي 1975، ص 76- 77.

[7] نفسه، ص: 77.

[*] اسمه الكامل "مصطفى بن محمد بن علي بن محمد الصالح بن محمد الغماري" من مواليد 16 نوفمبر 1948 ببلدية "برج خريص" بولاية البويرة، ينحدر من أسرة متدينة لها عناية خاصة بالثقافة العربية الإسلامية.

والشاعر لا يزال – إلى غاية كتابة هذه السطور– يزاول تدريسه بقسم اللغة العربية محاضرا في كلية الآداب بجامعة الجزائر. من مؤلفاته:

أسرار الغربة، نقش على ذاكرة الزمن، أغنيات الورد والنار، لن يقتلوك، الحلم الحاضر، قراءة في آية السيف، خضراء تشرق من طهران، قراءة في زمن الجهاد، جهاد وغربة، قصائد مجاهدة، عرس في مأتم الحجاج، مقاطع من ديوان الرفض، بوح في موسم الأسرار، حديث الشمس والذاكرة،ألم وثورة، العيد والقدس والمقام، الهجرتان، ديوان وإسلاماه، قصائد منتفضة.

ينظر: معجم الشعراء الجزائريين لعبد الملك مرتاض، عبد المالك بومنجل: الموازنة بين الجزائريين مفدي زكريا ومصطفى الغماري.

[8] سعيدي محمد، ملامح الرفض في شعر الغماري، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2000- 2001، ص: 14-15.

[9] مصطفى الغماري، ألم وثورة، المؤسسة الوطنية، د. ط، 1985، ص: 85.

[10] قري مجيد، مسار الرمز وتطوره في الشعر الحديث، أطروحة دكتوراه، 2009-2010، جامعة باتنة، ص: 47.

[11] نفسه، ص: 51.

[12] عبدالمالك بومنجل، الموازنة بين الجزائريين مفدي زكريا ومصطفى الغماري ، قرطبة للنشر والتوزيع، ط 1، 2015، ص: 27

[13] سعيدي محمد، ملامح الرفض في شعر الغماري، ص: 16.

[14] ابن تيمية ابن قيم الجوزية، أبو إسحاق الشاطبي، الغربة والغرباء تحقيق سليم بن عيد الهلالي، دار الهجرة للنشر والتوزيع، السعودية، ط 1، 1989، ص: 65- 66.

[15] الغماري مصطفى محمد، نقش على ذاكرة الزمن، ص: 303.

[16] شلتاغ عبود شراد، الغماري شاعر العقيدة الإسلامية، دار مدني، الجزائر، 2003، ص: 72.

[17] نفسه، ص: 83.

[18] الغماري، مصطفى، قراءة في آية السيف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1989، ص: 26.

[*] وهو ديوان: أسرار الغربة.

[19] سعيدي، محمد، ملامح الرفض في شعر الغماري، ص: 15.

[20] عبد المالك بومنجل، الموازنة بين الجزائريين مفدي زكريا ومصطفى الغماري ، ص: 19.

[21] نفسه، ص: 14.

[22] مصطفى الغماري، قراءة في زمن الجهاد، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 1980، ص: 09.

[23] مجيد قري، مسار الرمز وتطوره، ، ص: 48

[**] للاطلاع أكثر ينظر أدب الغرباء لأبي الفرج الأصبهاني، الغربة والغرباء ابن تيمية ابن قيم الجوزية، أبو إسحاق الشاطبي.

[24] بوقرورة عمر، الغربة والحنين في الشعر الجزائري 1945- 1964، منشورات جامعة باتنة، د.ت، ص: 235.

[25] مصطفى الغماري، نقش على ذاكرة الزمن: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1978، ص: 69

[26] المصدر نفسه، ص: 161.

[27] مصطفى الغماري، أسرار الغربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1982، ص: 135.

[28] سعيدي محمد، ملامح الرفض في شعر الغماري، ص: 16.

[29] مصطفى الغماري، ألم وثورة، ص: 88.

[30] مصطفى الغماري، أسرار الغربة، ص: 91.

[31] نفسه، ص 46.

[32] المصدر نفسه: 46.

[33] أبو القاسم، سعد الله، تجارب في الرحلة والأدب، عالم المعرفة، الجزائر، ط 3، 2009، ص: 154- 155.

[34] مصطفى الغماري، أسرار الغربة ص43-44.

[35] نفسه، ص: 169.

[36] مصطفى الغماري، حديث الشمس والذاكرة، ص 75.

[37] الغماري مصطفى، أسرار الغربة، ص: 85.

[38] نفسه، ص: 133.

[39] المصدر نفسه، ص 119.

[40] المصدر نفسه، ص: 55.

[41] المصدر نفسه، ص: 128- 129.

المصادر والمراجع:

1- المصادر:

المعاجم:

1- الخليل بن أحمد الفراهيدي : معجم العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ج3.

2- أبي القاسم بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1998.

3- بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان .

4- أبي الفضل بن منظور، لسان العرب المجلد 1 دار صادر، بيروت.

الدواوين:

الغماري، مصطفى محمد:

1- أسرار الغربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1982.

2- نقش على ذاكرة الزمن: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1978.

3- قراءة في زمن الجهاد، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 1980.

4- قراءة في آية السيف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1989.

5- ألم وثورة، المؤسسة الوطنية، د.ط، 1985.

2- المراجع:

1- ابن تيمية ،ابن قيم الجوزية، أبو إسحاق الشاطبي، الغربة والغرباء تحقيق سليم بن عيد الهلالي، دار الهجرة للنشر والتوزيع، السعودية، ط 1، 1989.

2- أبو القاسم، سعد الله، تجارب في الرحلة والأدب، عالم المعرفة، الجزائر، ط 3، 2009.

3- بوقرورة عمر، الغربة والحنين في الشعر الجزائري1945- 1964، منشورات جامعة باتنة، د. ت.

4- بومنجل، عبد المالك، الموازنة بين الجزائريين مفدي زكريا ومطفى الغماري ، قرطبة للنشر والتوزيع، ط1، 2015.

5- شلتاغ عبود شراد، الغماري شاعر العقيدة الإسلامية، دار مدني، الجزائر، 2003

مذكرات واطروحات:

1- قري مجيد، مسار الرمز وتطوره في الشعر الحديث، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة ، 2009-2010.

2- سعيدي محمد، ملامح الرفض في شعر الغماري، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 2000- 2001.

المجلات:

1- أحمد القديدي، أدب الغربة عند القيروانيين مجلة الفكر، العدد 108 ، 01- ماي - 1975.